انشقاق القمر

بحث لكاتبه عبد الله القيشاوي الغزي

في موضوع انشقاق القمر الذي كان قد تكلم فيه
سعادة احمد زكي باشا في جريدة الأهرام
ورد عليه فيه الأستاذ الشيخ محمود ياسين في
مجلة الهداية الإسلامية والأستاذ
الشريف الشيخ عبد الله آل علوي الحسني
صاحب مجلة المرشد
العربي

م
حقوق الطبع محفوظة

طبعت في يونيه سنة 1930م.

فهـــرس

(بحث انشقاق القمر)

الموضوع	الصفحة
السبب الداعي إلى البحث في موضوع انشقاق القمر.	1
بيان أن الروايات الواردة في انشقاق قمر السماء متناقضة ومتضاربة بحيث لا تصح أن تقوم حجة على حصوله بالمعنى المشهور.	2
فهم خاص فيما هو المراد من انشقاق قمر السماء الوارد في الروايات المذكورة.	3
تفسير خاص في بيان معنى انشقاق القمر ومعنى اقتراب الساعة الواردين في الآية القرآنية وبعض الأحاديث النبوي.	4
المرجح الأول. لهذا التفسير سياق قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر)	4
المرجح الثاني. قوله تعالى (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)	5
المرجح الثالث. قوله تعالى (وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر)	5
المرجح الرابع. قوله تعالى (ولقد جاءهم من الإنباء ما فيه مزدجر)	5
المرجح الخامس. قوله تعالى (حكمة بالغة فما تغني النذر)	5
المرجح السادس. قوله تعالى (فتول عنهم يوم يدع الداعي إلى شيء نكر)	6
المرجح السابع. قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح إلى قوله فكيف كان عذابي ونذر)	7
المرجح الثامن. قوله تعالى (أكفاركم خير من أولئكم أو لكم برأة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر)	7
المرجح التاسع. قوله تعالى (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)	7
المرجح العاشر. قوله تعالى (هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من ادون الله كاشفة)	8
المرجح الحادي عشر. قوله تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون، ما يأتيهم من ذكر من ربهم حدث إلى اتبعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم واسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم)	8
المرجح الثاني عشر. قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديدا)	9
المرجح الثالث عشر. قوله تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من ديارهم لأول الحشر ما ظننتهم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله)	10

المرجح الرابع عشر. قوله تعالى (وانه لعلم الساعة)	10
المرجح الخامس عشر. قوله صلى الله عليهم وسلم (بعثت أنا والساعة كهاتين)	10
المرجح السادس عشر. قوله صلى الله عليهم وسلم (إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة)	10
المرجح السابع عشر: (إن ماهية المعجزة تنطبق على انشقاق القمر بالمعنى الذي قلناه ولا تنطبق على انشقاق قمر السماء)	11
المرجح الثامن عشر: (إن المعجزة دليل وبرهان على صدق دعوى الرسالة وانشقاق قمر السماء لا تثبت هنا الدعوى ولا يقوم حجة عليها.	12
المرجح التاسع عشر: (إن انشقاق قمر السماء لم يذكره الأرصاد ولا المؤرخون ولم يثبت ثبوتا تاما في الأحاديث النبوية بمعناه المشهور.	12
أن جواز وإمكان انشقاق قمر السماء عقلا وبالنسبة لقدرة الله تعالى لا يصح أن يتخذ حجة على حصوله بالفعل إذ أن الجواز والإمكان شيء والحصول بالفعل شيء آخر.	12

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم حمدا يليق بعظمتك وجلالك، أثني عليك ثناء من يذعن بوحدانيتك ونزاهتك وكمالك، وأشكرك شكرا من يقدر جزيل نعمائك وعظيم آلائك، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين،الذي بعث رحمة عامة للعالمين، وأشرق سراجا وهاجا في السموات والأرضين، وانشق قمرا منيرا على الحلق أجمعين، وانبثق فجرا لامعا في آفاق قلوب المؤمنين صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وأصحابهم وأتباعهم أجمعين، إلى يوم الدين.

(السبب الداعي إلى البحث في موضوع انشقاق القمر)

كنت اطلعت في مجلة الإسلامية التي تصدر في القاهرة على مقال لحضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمود ياسين من دمشق ردا على مقال سعادة العلامة أحمد زكي باشا في موضوع انشقاق القمر المنشور في جريدة الأهرام ثم رأيت في مجلة المرشد العربي التي تصدر باللازقية ردا آخرا لحضرة الفاضل صاحبة المجلة المذكورة، وبالنظر لدقة هذا الموضوع وأهميته رأيت أن أدلي برأيي في موضوع انشقاق القمر وأوضحه توضيحا ينحل به الأشكال ويزول به الخلاف بين الباشا وبين الفاضلين المذكورين. غير أني لم استحسن من أحدهما الشيخ محمود ياسين ان يقول عن رأي الباشا أنه (فكرة أولئك المتجاهرين بالإلحاد المتظاهرين بالزندقة، العاملين على إذاعة الشبه وبث المبادئ اللادينية، الذي لا هم لهم إلا الإغارة على الحصون المحمدية والثغور الإسلامية مهما أمكنتهم الحال وسنحت لهم الفرص) – انتهى.

فإنني طالعت مقال الباشا فلم أجد فيه إلا ما يرتئيه كثير من العلماء والفسرين والمحدثين كالحسن وعطاء وغيرهما من أن انشقاق القمر سيحصل ويتحقق عند اقتراب الساعة، فلا بد من اقتراب الساعة أولا ثم بعد ذلك يحدث انشقاق القمر وذلك كسائر الأهوال والعلامات الواردة في القرآن من انشقاق السماء وانفطارها وتكوير الشمس وانكدار النجوم وانتثار الكواكب وتزلزل الأرض وتبدلها وغير ذلك من الأهوال والعلامات التي ستحصل وتتحقق عند اقتراب الساعة، ومثل هذا القول لا يجوز أن يعد إلحادا ولا زندقة ولا إغارة على الدين لأنه ليه ليس فيه إنكار لانشقاق القمر بالمرة حتى ينسب إلى هذا الكلام مثل هذا النسب فهو وإن كان قد برأ الباشا في هذه النسب إلا أنه قد نسبها غلى كلامه مع أن غاية ما فيه أنه إبداء رأي في تعين زمن حصوله، وليس هذا إلا احتمالا ورأيا من جملة الاحتمالات والآراء والتفاسير المنقولة. قال الفخر الرازي في مواضع متفرقة ما نصه:- (وقال بعض المفسرين المراد أنه سينشق وقال أكثر المفسرين معناه أن من علامات قيامة الساعة انشقاق القمر، ثم قال والأرجح عندي أن يكون معنى (اقتراب الساعة) أي اقتربت في العقول والأذهان أي صارت قريبة للعقل لا ينبغي لأحد انكارها كما يقال الأمر الفلاني قرب أو اقترب أي اقترب إمكانه في العقل وهذا وجه حسن لان حمله على قرب الوقوع زمانا لا إمكانا يمكن الكافر ويجسره من أن يقول أن الله تعالى قد اخبر بأن قد اقترب الساعة في زمن محمد صلعم وقد اخبر أيضا من قبل في الكتب المقدسة باقتراب الوعد وقد مضى الآن على ذلك مئات من السنين ولم يقع ولا يبعد أن يمضي أيضا مثلها أو أكثر ولا يقع أيضا فو صح إطلاق لفظ القرب زمانا على مثل هذه لا يبقى وثوق بالآيات والأحاديث والأخبار). انتهى.

وقال الألوسي:- (قال بعضهم أن انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه وهذا كما يسمى الصبح فلقا عند انفلاق الظلمة عنه وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق، وقال بعضهم: معنى انشق القمر وضح وظهر الأمر وروى عن الحسن وعطاء أن هذا الانشقاق يكون بعد النفخة الثانية) – انتهى.

وحينئذ فهل الحسن وعطاء وغيرهما وسائر المفسرين الذين يقولون بغير القول المشهورهم من الزنادقة والملحدين ومن الذين يقصدون الإغارة على الدين عند حضرة الأستاذ الشيخ محمود ياسين.

إن تفسير أي آية أو حديث بما يحتمله اللفظ لا يعد مخالفة الدين وإن كان خطأ لأنه اجتهاد وللمجتهد المخطئ أجر وللمصيب أجران فلا يجوز إسناد الإلحاد أو الزندقة لمن استحسن بعض هذه الأقوال أو قوى البعض الآخر بالدليل والبرهان، ولكن مع الأسف هذه هي عادة الشرقيين خصوصا منهم المسلمين فإنهم متى وجدوا واحدا قال بغير القول المشهور بينهم نسبوه إما للكفر أو للزندقة أو للإلحاد أو الإغارة على الدين. ولو أقام على صحة مدعاه ألف دليل، وهذا بلا شك هو تعد صرف وضرر محض إذ أنه يمنع من حرية الفكر واستعمال العقل والتدبير والتفكر التي أمر الله بها في كتابه العزيز ويساعد على تمكن التقليد الأعمى في النفوس الذي نهى الله عنه. نعم هناك أمور معلومة من الدين بالضرورة متواتر نقلها عن المعصوم بحالتها وهيأتها الحاضرة ومجمع عليها كالصلاة والصوم والزكاة والحج ونحوها فمثل هذه لا مجال للأخذ والرد فيها، بخلاف غيرها من نحو انشقاق القمر فإنه بالنظر لعدم تواتره وعدم الإجماع عليه بمعناه المشهور لا مانع من إبداء رأي فيه مهما كان بعيدا ما دام هناك إقرار وإذعان بأصل الموضوع كما هنا فإن الباشا وكل من يرى عدم انشقاق قمر السماء يقر ويذعن بأصل معنى انشقاق القمر الوارد في صريح القرآن الذي لا يمكن لأحد من المسلمين انكاره وإن كان بعضهم يفهم فيه غير ما يفهمه البعض الآخر، ولذلك قال الألوسي: (لا يكفر المنكر لهذا المعنى لعدم الاتفاق على تواتره وعدم كون الآية نصا فيه).

وقال في موضع آخر نقلا عن بعضهم أنه لا يوجد ذكر لانشقاق القمر في كتب التسيير والتنجيم ولم يذكره المؤرخون ولا أرباب الأرصاد أيضا مع أنها كانت موجودة قبل البعثة بكثير فاطباقهم جميعا على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره مما لا تجوزه العادة، وقال الفخر الرازي (لم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر ولم يذكره المؤرخون أيضا).

(بيان أن الروايات الواردة في انشقاق قمر السماء هي متناقضة ومتضاربة بحيث لا يصح أن تقوم حجة على حصوله بالمعنى المشهور)

أن روايات الأحاديث الدالة على انشقاق قمر السماء يوجد فيه من التناقض والاختلاف والتضارب ما يجعلها ضعيفة الدلالة على هذا المعنى فإن بعضها يفيد أن انشقاق القمر كان نصفين نصفا على جبل أبي قبيس ونصفا على قينقاع وبعضها نصفا على الصفا ونصفا على المروى، وبعضها كان بينهما حراء، وبعضهما فرقة على الجبل وفرقة دونه، وبعضها فرقة من دونه والأخرى خلفه، وبعضها أن الانشقاق حصل والنبي صلى الله عليه وسلم بمنى، وبعضها وهو بمكة، وبعضها أن السبب في الانشقاق هو طلب أحبار اليهود، وبعضها طلب أهل مكة، وبعضها من غير طلب بل النبي صلى الله عليه وسلم أشار بسبابته فانشق، وبعضها انه دخل في جيبه وخرج من كمه، وبعضها أن الانشقاق حصل ليلة أربعة عشر من الشهر، وبعضها في غير تلك الليلة، وبعضها أن الانشقاق كان نصفين، وبعضها انه انشق قمرين، وبعضها أنه انشق مرة، وبعضها مرتين، وبعضها ان الانشقاق كان مقدرا ما بين العصر إلى الليل، وبعضها أنه كان لحظة فقط، وبعضها عن الحسن وعطاء أنه لم يحصل انشقاق أصلا وإنما سيحصل بعد النفخة الثانية وأن التعبير بالماضي لتحقق وقوعه، وبعضها أن الذي حصل في هذه الحادثة هو الكسوف فقد أخرجه الطبراوي وابن مردوية عن عكرمة عن بن عباس قال كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سحر القمر فنزلت اقتربت الساعة وانشق القمر إلى قوله مستمر) فأنت ترى أن هذه الروايات بعضها يفيد عدم حصول انشقاق القمر بالمعنى المشهور كليا مما يناقض روايات حصوله وبعضها يفيد أن المراد من الانشقاق هو الكسوف مما يخالف روايات حصوله وترى أيضا أن روايات حصوله متضاربة تضاربا كثيرا (فأولا) أن وجود هذا التناقض والاختلاف والتضارب يدل دلالة صريحة على عدم تحقق حصول الانشقاق بالمعنى المشهور إذ من المعلوم أنه لو قال واحد أنني رأيت هلال رمضان مثلا في جهة كذا وقال آخر رأيته في جهة كذا وذكر جهة أخرى، أو قال أحدهم رأيته بشكل كذا، وقال آخر رأيته بشكل آخر فلا يعتبر قول واجد منهم ولا يحكم برؤية الهلال، ولا بثبوت رمضان لتناقض الشهادات، واختلاف الرؤيات وتضارب الروايات فكذلك الأمر هنا بل أكثر، لأن التناقض هنا أشد والتضارب أحد والاختلاف اكبر.

(ثانيا) أنه لم ينقل عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموضوع شيء ولم يسند إليه حديث يدل على انشقاق قمر السماء حتى يكون ذلك حجة على حصوله بل كل ما ورد في ذلك إنما هو مسند لغير معصوم مما عرفت تناقضه وتضاربه. وكذلك لم يسند إليه أنه هو الذي قال انشق القمر فنزلت، (اقتربت الساعة وانشق القمر) ولا أنه هو الذي قال كسف القمر فنزلت هذه الآية حتى يكون ذلك دليلا على أن هذه الآية نزلت لأجل ذلك،

على أنه كيف يعقل أن يكون انشق من القمر السماء أو خسوفه الذي يتكرر في كل سنة بأسباب معلومة هي حيلولة ظل الأرض في أوقات معينة بينه وبين الشمس التي ستفيد نوره هو السبب أو العلامة على مجيء يوم القيامة وانتهاء العالم، وكيف يكون خصوص هذا الكسوف الذي حصل في زمن النبي صلى الله عليه وسلم الذي صادف أن الآية نزلت بعده هو السبب في ذلك من بين آلاف المرات التي حصلت في منه وقبله وبعده، وهل يليق أن يكون الكسوف سببا في نزول هذه الآية الحكيمة مع أنه لا يوجد أدنى علاقة معقولة بينه وبينها، ومع أنها تعنى معنى آخر قد وضحته وبينته الآيات التي بعدها كما سيأتي، ومع أنه لم ينقل عن نفس النبي صلى الله عليه وسلم ما يفيد أن الآية نزلت لأجل هذا الانشقاق أو الكسوف.

(ثالثا) أن أكثر روايات انشقاق قمر السماء هي مروية عن بن عباس وانس وابن عباس لم يكن مولودا إذ ذاك، وأنس كان بن أربعة أو خمس سنين فالأول لم يكن حاضرا والثاني لم يكن واعيا، وهذا يدل على أن ما روي عنهما إنما هو ما سمعاه لا ما رأياه، وأن ما سمعاه ليس مسندا للنبي صلى الله عليه وسلم لأنهما لم يرويا عنه شيئا من ذلك.

وإن حمل هذه الآية على هذا المعنى المشهور ليس عن دليل ثابت وإنما كان يقصد تقوية هذه الروايات، وأن هذه الآية في الحقيقة لا تعلق لها بهذا المعنى مما يدل على أنه لا يوجد دليل في الحقيقة لا تعلق لها بهذا المعنى مما يدل على أنه لا يوجد دليل محقق ولا حجة قائمة على حصول انشقاق قمر السماء، وأنت خبير بأن ادعاء شيء مستبعد في العقل أو مخالف للظاهر يحتاج إلى دليل قوي يثبته وإلى حجة ظاهرة تؤيده، وقد عرفت أنه لا يوجد هنا شيء كاف لإثبات ذلك.

(فهم خاص فيما هو المراد من انشقاق قمر السماء الوارد في الروايات المذكورة)

قد عرفت أن الطبراني وابن مردويه قد أخرجا عن عكرمة عن بن عباس أنه قال (كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سحر القمر فنزلت اقتربت الساعة وانشق القمر إلى قوله مستمر) فهذه الرواية تفيد أن المراد من انشقاق القمر هو كسوفه حيث رتب نزول آية انشقاق القمر على حصول هذا الكسوف فعلى مقتضى هذه الرواية يحتمل أن هذا الكسوف كان جزئيا شق القمر من وسطه شقين فكان وسطه مظلما وشقاه مضيئين أو أنه شقه إلى شقين شق مظلم وشق مضيء فعبر بعض المحدثين عنه بأنه انشق كما في بعض الروايات، وعبر بعضهم بأنه كسف كما في بعض الروايات الأخرى، وأنه لما نزلت هذه الآية حملها هذا البعض على الكسوف ورتب نزولها عليه، وحملها البعض الآخر على الانشقاق ورتب نزولها عليه، وإن كانت الآية في الحقيقة لا تعني هذا الكسوف ولا هذا الانشقاق بل تعني معنى آخر أعظم وأجسم كما سيأتي توضيحه بأحلى بيان (فأولا) أن هذه الروايات صريحة في أن الذي حصل هو الكسوف وأنه هو المراد من انشقاق القمر الوارد في الروايات الأخرى (ثانيا) يؤيد ذلك ما أخرجه أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس أنه قال (فأمس القمر قد مثل نصفا على أبي قبيس ونصفا على قينقاع مما يدل على أن الانشقاق أن كان قد مثل تمثيلا لا أن حصل حقيقة. ويؤيده (ثالثا) ما روي من أن المشركين حينما رأوا انشقاق القمر ضربوا بطبلهم كعادتهم إذا كسف القمر مما يشعر بأن الذي حصل هو الكسوف المعبر عنه بالانشقاق.

ويؤيده (رابعا) أن كثيرا من الروايات تصرح بأن القمر كمان عند الانشقاق بدرا، وفي بعضها أنه كان ليلة أربعة عشر مما يفيد أن الذي حصل هو الكسوف حيث أن الكسوف غالبا إنما يكون ليلة أربعة عشر والقمر بدر، وإن كان قد يحصل ليلة الثالث عشر والخامس عشر.

ولا يمنع من صحة استدلالنا بهذه الروايات على ما نقول ما كان قدمناه سابقا من أن هذه الروايات متناقضة ومتضاربة وأنها مروية عن بن عباس وانس اللذين لم يشاهدا ما تضمنته تلك الروايات، لأننا لا نريد أن نستدل بها على حصول الكسوف في ذلك الوقت حتى يتحقق فيها التناقض والتضارب وعدم رؤية بن عباس وأنس له كما يتحقق ذلك في رؤية الانشقاق لأن حصول الكسوف في ذلك الوقت وفي كل سنة معلوم ومحقق لا يحتاج إلى استدلال، ولكن نريد أن نستدل بها على أن هذا الكسوف المحقق حصوله في ذلك الوقت المراد في بعض هذه الروايات هو المراد والمقصود من الانشقاق الوارد في الروايات الأخرى، وأن التعبير بالانشقاق إنما كان بحسب ما يترآى للإنسان من أن القمر عند كسوفه يكون كأنه انشق إلى شقين وأن المراد من الانشقاق إنما هو الكسوف، والاستدلال بتلك الرواية على هذا المعنى ظاهر واضح لا تناقضه الروايات الأخرى، ولا يحتاج إلى مشاهدة وعيان كما يحتاج إليها رؤية انشقاق قمر السماء، كما أننا لا نريد أن نستدل بها أيضا على أن آية (اقتربت الساعة وانشق القمر) نزلت لأجل هذا الانشقاق أو هذا الكسوف لأنك قد عرفت وستعرف أيضا بالأدلة الواضحة أن هذه الآية لا علاقة لها بهذين المعنيين وإنما تعني معنى آخر سيأتي توضيحه، بل القصد من ذلك أن هذه الرواية تشعر إشعارا ظاهرا بأن التعبير بالانشقاق في تلك الروايات يراد به الكسوف كما يهو صريح من هذه الرواية وبذلك يرتفع التناقض الحاصل بين رواية الحسن وعطاء الناطقة بعدم حصول انشقاق قمر السماء كليا وبين روايات حصوله كما أن تنحل أيضا التضارب الحاصل بين رواية الكسوف ورواية الانشقاق، وتكون جميع الروايات في هذا الموضوع صحيحة ظاهرة لا غبار عليها، فلا العقل يستبعدها كما يستبعدها لو فسرت بانشقاق قمر السماء، ولا ترفضها رواية الحسن وعطاء.

على أن غاية ما تفيده روايات انشقاق القمر من حيث المجموع هو حصول انشقاق بالمعنى المطلق الوارد في الآية القرآنية التي لا يمكن لأحد إنكارها ولا إنكار دلالتها على هذا المعنى المطلق الذي يصدق على معاني كثيرة ويصح أن يفسر ويبين بأي معنى تقوم عليه الأدلة الواضحة والبراهين المعقولة، وحينئذ فلا خطر على الباشا ولا على غيره من تغيير انشقاق المقمر الوارد في الآية بمعنى لائق معقول، وبتفسير محتمل مقبول، ما دام الكل مقرا ومتفقا على حصول انشقاقه بالمعنى المطلق، وهنا أريد أن أبين رأيي في معنى انشقاق القمر الوارد في قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر).

(تفسير خاص في بيان معنى انشقاق القمر ومعنى اقتراب الساعة الواردين في هذه الآية القرآنية وبعض الأحاديث النبوية)

إن الانشقاق في اللغة يطلق إطلاقا حقيقيا أو مجازية على الطلوع والظهور والوضوح كما يقال انشق الفجر أي طلع وظهر ووضح، والقمر يطلع على الكوكب المعلوم وعلى كثير غيره أيضا مجازا مما يشبه في الإضاءة أو الإنارة، أو الظهور والوضوح، أو الجمال والبهاء، وعليه فيحتمل أن يكون المراد هنا من القمر هو قمر النبوة ونور الهداية محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد تسميته به وتسمية أصحابه بالنجوم لأنه في إضاءته للكون وإنارته لقلوب المؤمنين كالقمر أي ظهر محمد وطلع نوره، ووضح الإسلام واستتبت أموره، وبزغ نور التوحيد والإيمان، وسطع ضياء هدى القرآن، فأنار الكون وأضاء العالم كما أنارها وأضاءها القمر.
والساعة تطلق على الساعة الكبرى في اليوم الآخر وهو يوم القيامة ويوم الجزاء والإدانة، وتطلق أيضا على الساعة التي يكون فيها الجزاء والانتقام والإدانة في الدنيا أيضا كما يقال جاءت ساعة فلان أو ساعة الأمة الفلانية أي جاءت ساعة هلاكها واضمحلالها لأنه كما يوجد جزاء في اليوم الآخر على عموم العالمين كذلك يوجد جزاء في الدنيا على الأفراد والأمم كما هو ثابت في القرآن ومشاهد للعيان، فيكون معنى الآيتين معا أنه قربت جدا ساعة هلاك المشركين واضمحلالهم وتلاشيهم وإدانتهم في الدنيا بما اقترفوه من ضروب الظلم والتعدي والغش والتفرقة والفساد، وبما اكتسبوه من أنواع الذنوب والخطايا والشرك والكفر والجحود والعناد، لأنه انشق قمر الإسلام بظهور محمد عليه الصلاة والسلام وسطعت أنوار القرآن، فحق أن يقال في ذلك الزمان (اقتربت الساعة وانشق القمر) أي قربت جدا ساعة هلاك المشركين وعلو مقام الموحدين بظهور سيد المرسلين واشراق قمر الكائنات أاجمعين كما قال عليه الصلاة والتسليم، (بعثت أنا والساعة كهاتين) أي متقاربين متلاصقين كهاتين الأصبعين، فتكون الساعة وانشقاق القمر بمقتضى هذا البيان قد حصلا فعلا فيما مضى وقت ظهور الإسلام مع الأمتين أمة الشرك وأمة التوحيد فإن صناديد قريش وزعماء المشركين قد هلكوا جميعا في وقعة بدر وغيرها ثم هلك باقي المشركين عن آخرهم وتعاظم أمر المسلمين وتعالى شأن المؤمنين الموحدين، فتكون قد جاءت ساعتهم الصغرى وحضر وقت مجازاتهم في الدنيا كل بحسب ما يستحق من علو وانخفاض ورقي وانحطاط، وسعادة وشقاء، وحياة وفناء، واتحاد وانقسام، واستقلال واندغام، وأنعام وانتقام.
وعلى هذا التفسير والبيان يكون قول الفاضلين أصحاب الرديين بأن انشقاق القمر قد حصل فيما مضى هو في محله ولكن بغير المعنى الذي يقصدونه ويكون قول الباشا أن انشقاق القمر بالمعنى المشهور لم يحصل وإنما سيحصل في المستقبل مع باقي الأهوال والعلامات كانتشار النجوم وانشقاق السموات هو في محله أيضا ولكنه ليس مدلولا لهذه الآية (لأنها عبرت بالفعل الماضي) بل هو مدلول لأدلة أخرى وهي أدلة انقضاء أجل السموات والأرض وما بينهما التي من جملتها القمر مثل قوله تعالى (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) التي تفيد أن كل حادث كما أن له ابتداء له أجل ينتهي به.
ولعل بهذا التغير والبيان يحل الإشكال ويزول الخلاف بين الفاضلين وبين سعادة الباشا. ولتوضيح ذلك وتأييده أريد أن أبين لهذا التفسير مرجحات على غيره من التفاسير الأخرى ببيان أن كل آيات سورة القمر من أولها إلى آخرها منطبقة على هذا المعنى تمام الانطباق، وموافقة له غاية الوفاق، ومنساقة إليه غاية الانسياق، بخلافها بالنسبة للمعنى الآخر فإنها بعيدة عنه غير مرتبطة به ولا ملائمة له.

(المرجح الأول لهذا التفسير)

إن ظاهرة سياق ونسق هذه الآية يفيد ترتب أحد الجملتين منها على الأخرى وأن انشقاق القمر علامة على اقتراب الساعة ويؤيد ذلك قراءة حذيفة (اقتربت الساعة وقد انشق القمر) أي قربت الساعة لأن القمر قد انشق وهذا الترتيث ظاهر في المعنى الذي بيناه لأنه قد ترتب فعلا وحقيقة على ظهور محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى ظهور الإسلام، قرب ساعة هلاك المشركين، ونمو الموحدين، فكان هذا الظهور علامة على قرب هذه الساعة قربا حقيقيا بلا تعسف ولا تمحل بخلاف انشقاق القمر بمعنى الكوكب فإنه لم يترتب عليه قرب قيام الساعة الكبرى وهو يوم القيامة لحد الآن وربما يمضي أيضا أكثر مما مضى قبل قيامها فلا يكون هذا الانشقاق علامة عليها للزوم قرب العالمة من المعلم عليه قربا يصحح كونه علامة عليه. على أنه لم يرد أن انشقاق قمر السماء من جملة أشراط الساعة وعلاماتها.

(المرجح الثاني)

قوله تعالى في الآية الثانية (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) فإن انشقاق قمر السماء لم يستمر لأنه لم يمكث إلا لحظة وفي رواية قدر ما بين العصر إلى الليل، والعرب لم تكن من الجهل والغفلة والغباوة بحيث تقول عن الشيء الذي لا يمكث إلا لحظة أو ساعتين بأنه مستمر مع مشاهدتهم انقضاءه في الحال فلو كان الانشقاق بها المعنى هو المراد لما صح وصفه بالسحر المستمر بل بالسحر الزائل ولذلك اضطر من يرى هذا المعنى إلى تفسير مستمر بذاهب تفسيرا للفظ بعكس معناه تمشية لرأيه.
أما على بياننا المتقدم فلا نحتاج لتفسير مستمر بعكس معناه لأن انشقاق نور الإسلام وإشراق ضياء تعاليم القرآن مستمر إلى آخر الدوران.
وأما كونه آية يعرضون عليها فهو ظاهر لأن آية من آيات القرآن كانوا متى سمعوها أعرضوا عنها. قال تعالى (وما تأتيهم من آية من ربهم إلا كانوا عنها معرضين).
(ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين)
(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وألقوا فيه لعلكم تغلبون). وما وصفه بالسحر فهو مثل قوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا بالحق لما جاءهم هذا سحر مبين) من باب (إن من البيان لسحرا) فالقرآن بيان جذاب للقلوب مؤثر في النفوس معجز للبشر لا يمكنهم أن يأتوا بمثله في الهداية والتأثير فالمشركين نظرا لكفرهم وعنادهم زعموا أن هذا الجذب والتأثير وانقياد العالم إليه وخضوعهم لتعاليمه ليس حقيقيا ولا بتأثير النبي بل هو خداع ناشئ عن سحر البيان، وزلاقة اللسان، تعالى هذا النور المبين، والبيان والقرآن الحكيم، عما يقول أهل العناد من المشركين، فقد ظهر لك مما بيناه أن هذه الآية تنطبق على انشقاق القمر بالمعنى الذي ذكرناه أكثر جدا من انطباقها على المعنى المشهور.

(المرجح الثالث)

قوله تعالى في الآية الثالثة (وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر) فإن قوله وكل أمر مستقر في مقام الرد عليهم أي لو كان سحرا لزال مهما طال، ولكن كل أمر من الأمور الدينية التي من جملتها هذا الانشقاق مستقر ثابت لا يزول لأنه حق أما الباطل فهو زاهق غير مستقر، وهذا تهديد لهم بدوامه، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم باستقراره، فانشقاق القمر بهذا المعنى هو الذي يوصف بأنه مستقر لأن جذب الإسلام للقلوب، وتأثير القرآن في النفوس، موجود ومتحقق في جميع الأزمان والعصور بخلاف انشقاق قمر السماء فإنه غير مستقر فلا تنطبق الآية عليه ولا تلائمه.
وفي هذه الآية إشارة ثانية دقيقة تؤيد أيضا ما نقول هي قوله (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) فإنها تتضمن التنديد على تكذيبهم ولا يتحقق هذا التنديد ولا يقبل إلا في تكذيب ما لا يؤثر فيه التكذيب مما هو باق غير زائل كانشقاق القمر بالمعنى الذي ذكرناه وأما انشقاق قمر السماء فبالنظر لكون التكذيب قد يؤثر فيه لعدم بقائه ودوامه حتى يقاوم تكذيبهم فإنه لا يكون فيه للتنديد على تكذيبهم محل – ولا معنى. وإشارة ثالثة في قوله (واتبعوا أهواءهم) أي اتبعوا ما هووه وأحبوه وألفوه م عوائدهم وعقائدهم وكذبوا ما يخالفها من عقائد الإسلام وتعاليمه وهذا صريح فيما نقول بعيد عن إلتآمه ومناسبته لانشقاق قمر السماء لأنه ليس من الأمور التي تخالف وتقابل الأهواء والشهوات، والعوائد والمعتقدات.

(المرجح الرابع)

قوله تعالى في الآية الرابعة (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر) أي كيف يكذبون انشقاق القمر والحال أنه قد جاءهم فيه من الأنبياء ما فيه مزدجر لهم. فالأنبياء الزاجرة صريحة في أنباء القرآن وزواجره الملائمة لما نقول بعده من ملائمة انشقاق قمر السماء.

(المرجح الخامس)

قوله تعالى في الآية الخامسة (حكمة بالغة فما تغني النذر) فإن هذه الحكمة أي العلم النافع البالغ النهاية في المنفعة والفائدة هي تفسير وبيان لأنباء القرآن وزواجره وآياته التي هي نور الإسلام الذي انشق وظهر بظهور محمد عليه الصلاة والسلام فهذه الآية مرتبطة أيضا بالآية الأولى على المعنى الذي نقوله بعيدة عنها على المعنى الآخر ولذلك قال (لما تغني النذر) أي لا تغنيهم ولا تفيدهم تلك الإنذارات والزواجر الكلامية، ولا تلك الأنباء والآيات

(المرجح السادس)

قوله تعالى في الآية السادسة (فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر) أي أعرض عنهم وأتركهم ولا تناظرهم بالكلام، ولا تنصحهم بالبيان يوم يدعوا داعي الحرب في وقعة بدر وغيرها من الحروب التي هلكوا فيها كما يدل على ذلك قوله تعالى بعد هذه الآيات (سيهزم الجمع ويولون الدبر) النازلة في وقعة بدر باتفاق المحدثين والمفسرين كما أخرجه الطبراني عن أبي هريرة قال (أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم بمكة قبل يوم بدر (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فقال عمر بن الخطاب قلت يا رسول الله أي جع يهزم؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم مصلتا بالسيف وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر فكانت ليوم بدر). مما يدل على أن المراد من الداعي هو من دعاهم إلى الحرب يوم بدر وحضرهم عليه فقد ورد أن أبا سفيان استأجر راكبا ليستنفر قريشا لوقعة بدر وأن أبا جهل بناء على ذلك نادي في قريش (أن أسرعوا بالخروج على كل صعب وذلول) وأن عاتكة بنت عبد المطلب رأت في المنام أن راكبا أقبل عليها على بعير لها حتى وقف بالا بظح ثم صرخ بأعلى صوته أن أنفروا يا آل غدر إلى مصارعكم ثلاث مرات: وعليه فيكون قوله تعالى إلى شيء نكر ظاهر واضح بلا تأويل لأنه لا يوجد منكر أكبر من محاربة الشرك للتوحيد، ولا أنكر من مناصرة الكفر على الأيمان وأيضا فإن الحرب في حد ذاته منكر أي تنكره وتكرهه النفوس خصوصا إذا كان تعديا وظلما، فإن نفوسهم تستنكره لما تشعر به من الخذلان، وتنفر منه لما يترتب عليه من الخسران، أي أتركهم في ذلك اليوم على هوسهم وغيهم وجهلهم بعواقب الأمور حتى يخرجوا إلى مصارعهم ويلاقوا العذاب فعلا جزاء أعراضهم وعنادهم وتكذيبهم وإتباع أهوائهم، فتكون هذه الآية مرتبطة بما قبلها أيضا تمام الارتباط على المعنى الذي بيناه دون المعنى الآخر.

وقوله (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) أي يخرجون من مساكنهم التي هي الأجداث لأنهم فيها كالأموات، فهم في حالتهم التي كانوا عليها من الجهل والضلال والكفر والإشراك أموات في قبورهم. أي يخرجون من أجداثهم في ذلك اليوم ليلاقوا في الحرب جزاء أعمالهم خاشعة أبصارهم، أي خاضعة قائلة إلى أسفل شأن المتفكر المهموم المستشعر بالهلاك والانكسار والخذلان (مهطعين إلى الداعي) أي مسرعين إلى داعي الحرب ومنقادين إليه انقياد الشاه لذبحها (يقول الكافر ها يوم عسر) لأنه خرج على المؤمنين وهو ظالم لهم متعدي عليهم، وما أعسر وأشد يوم جزاء الظالم المتعدي. أما المؤمنون الذين يعتقدون أنهم على حق وأنهم فائزون بإذن الله تعالى، فهو يوم ليس بعسر عليهم بل هو يوم سرور بخذلان المشركين، وسعادة بفوز المؤمنين. ويحتمل أن يكون المراد من الداعي هنا هو داعي الأيمان والإسلام أي الذي يدعو إلى توحيد الله تعالى وكان التوحيد عند المشركين شيئا نكرا لأنه يبطل إشراكهم وينبذ آلهتهم التي كانوا يعبدونها فهو غريب لديهم، منكر في اعتقادهم، مكروه لنفوسهم، لمخالفته لعوائهم، ومألوفاتهم وعقائدهم، ويكون قوله تعالى (خشعا أبصارهم) مفعولا به (ليدعو) فالمدعوون هم الخشع. لأن من يجيب داعي الإيمان والتوحيد هم الذين تكون أبصارهم خاشعة وقلوبهم لينة، فيدعوهم حتى يخرجوا من أجداث جهلهم وظلالهم ويصيروا أحياء بعلمهم وإيمانهم بعد أن كانوا أمواتا بهذا الجهل والضلال، والكفر والإشراك. وحقيقة قد خرجوا بواسطة الإسلام من هذه الأجداث فعلا بإيمانهم وتوحيدهم وعلمهم ومعرفتهم وقد كانوا يخرجون بكثرة كأنهم جراد منتشر، حتى عم الإسلام جميع البقاع وانتشر المسلمون في جميع الأصقاع، فتكون هذه الآية في المعنى نظير قوله تعالى (يدخلون في دين الله أفواجا) فالمعنى حينئذ أنه يوم يبلغ الإسلام هذا المبلغ من الانتشار، تول عنهم وأتركهم ولا تبالي بهم، ولا تهتم لشأنهم لأنهم حينئذ تضعف شوكتهم ويضمحل تأثيرهم بحيث لا يقدرون على معاكسة التوحيد ولا على معارضة الإسلام وهذا مما يرجح أن المراد من انشقاق القمر هو ظهور الإسلام وانتشاره. أي فمتى ظهر الإسلام وانتشرت إتباعه انتشار الجراد تول عنهم حيث ظهر الحق من الباطل وتبين الرشد من الغي (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).

وعلى هذين الاحتمالين تكون جميع هذه الآيات ظاهرة بينة واضحة بلا تعسف ولا تمحل ولا تحتاج إلى تقديم وتأخير كما اضطر لذلك أكثر المفسرين فإنهم بالنظر لتفسيرهم الداعي لجبريل أو إسرافيل الذي يدعوا الناس للخروج من قبورهم يوم القيامة قد اضطروا لأن يجعلوا قوله تعالى (فتول عنهم) منسوخا بلا دليل ولا ناسخ، وأن يجعلوا (يوم يدع الداع) ظرفا ليخرجون، مع أنها متأخرة عنها في الذكر كثيرا ومع وجود فواصل بينهما تبعد هذه العلاقة بينهما أو ظرفا لقوله فما تغني النذر أو لقوله مستقر وما بينهما اعتراض مع أن الآيات المعترضة بينهما تمنع من صحة هذه الظرفية، أو مفعولا لفعل مقدر محذوف وهو أذكر أو انتظر مع عدم وجود دليل على هذا الحذف والتقدير، وأن يفسروا الشيء النكر بالحساب أو الجمع له أو النشر مع بعد تسميته هذه الأشياء بالنكر أو المنكر وأن يجعلوا (خشعا أبصارهم) حال من فاعل (يخرجون) المتأخرة عنها في الذكر أو حال من الضمير

أما علي تفسيرنا فيكون يوم يدع الداع ظرفا لقوله (فتول عنه) المتصلة به وخضعا أبصارهم مفعول ليدع المتصلة بها أيضا وجملة يخرجون صفة لخشعا المتصلة نحو الله وعليه فلا يكون في ذلك أدنى ارتباك ولا تفكك ولا جمع معترضة ولا حذف ولا تقدير، ولا تقديم ولا تأخير، بل يكون الكلام سائغا منظما، والآيات مترتبة ترتيبا محكما يجعل المعنى الذي قلناه في غاية الظهور والوضوح ومرجحا على غيره من الأقوال الأخرى في الاعتماد والقبول.

(المرجح السابع)

قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) إلى قوله في الآية السادسة عشر (فكيف كان عذابي ونذر) فإن هذه الآيات التي تفيد أن قوم نوح لما كذبوه أهلكهم الله بعذاب في الدنيا وهو الغرق هي بمثابة تمثيل وتنظير وإنذار للمشركين بأنه سيحصل لهم في الدنيا من العذاب والهلاك بسبب تكذيبهم لمحمد عليه الصلاة والسلام نظير ما حصل لغيرهم من الأمم قبلهم من العذاب في الدنيا أيضا مما يفسر ويوضح ويستشهد به على الشق الأول من الآية وهو قوله تعال (اقتربت الساعة) ولذلك قال على وجه الاستفهام التقريري (فكيف كان عذابي ونذر) الدالة على حصول العذاب في الدنيا ، وقوله في الآية السابعة عشر (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) التي هي عقب (فكيف كان عذابي ونذر) إشارة وتوضيح واستشهاد على الشق الثاني منها وهو قوله (وانشق القمر) فإن تيسير القرآن للذكر أي تسهيله للتذكر والتدبر وتوضيحه للعقل وإشراق أنواره على القلوب هو المقصود من انشقاق قمر النبوة وإشراق أنوار الرسالة وإنزال القرآن.

وكذلك حكاية عاد في هذه السورة وإرسال الريح الصرصر عليهم وحكاية ثمود وإرسال الصيحة عليهم، وحكاية قوم لوط وتصبيحهم بالعذاب المستقر مع تعقيب كل واحدة من هذه الحكايات والإنذارات بقوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) فغنها كلها بشقيها اللذين هما إرسال العذاب وتيسير القرآن للذكر ليس مسوقة إلا للتوضيح والاستشهاد على شقي (اقتربت الساعة وانشق القمر) فتكون جميع آيات السورة مرتبطة ببعضها على المعنى الذي بيناه بخلافها علي المعنى الآخر.

(المرجح الثامن)

قوله تعالى عقب هذه الآيات تهديدا لقريش (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر) فإنها تفيد أن المشركين ليس هم خيرا من الأمم الأولى حتى لا يعذبوا في الدنيا مصلهم وليس لهم براءة في الزبر على ذلك ولا أنهم منتصرون في الحرب بل سيهزم جمعهم ويولون الدبر مما يصرح بما نقول من أن الساعة التي اقتربت هي ساعة هلاكهم في وقعة بدر كمما مر لك من أن هذه الآية نزلت فيها، فتكون جميع آيات هذه السورة كلها في موضوع واحد هو بيان هذه الواقعة.

(المرجح التاسع)

(قوله تعالى بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)

فإن (بل) لأحزاب الترقي أي أن انهزامهم وإدبارهم قد بين مواطن ضعفهم وسبب ظهور فشلهم ولكن ساعة قتلهم بالفعل وتمكن المسلمين من رقابهم وإفنائهم وإهلاكهم عن آخرهم هي أدهى جدا وأمر، وأكبر مصيبة عليهم وأشر، من انهزامهم وإدبارهم فهذا الانهزام والإدبار ليس إلا سببا من أسباب ذلهم واضمحلالهم، ومقدمة لهلاكهم التام، وفنائهم العام، بحيث لا يبقى منهم ديار ولا نافخ نار.

فعلى هذا المعنى يكون الأحزاب والترقي طبيعيا وفي محله وتدرجا من الأسباب إلى المسببات ومن المقدمات للنتائج بخلاف حمل الساعة على الساعة الكبرى وهو يوم القيامة فإن المعنى يكون بعيدا جدا إذا أن انهزامهم وإدبارهم ليس سببا موجبا لقيامها، ولا داعيا ومقتضيا لمجيئها كما هو هنا، وحينئذ فالأرجح أن يكون المراد من الساعة هنا هو ما قلناه المبين والمفسر للساعة المذكورة في أول السورة.

فليست الساعة في إصلاح القرآن مخصوص بيوم القيامة حتى يجب أن يحمل كل ما ورد فيه من ذلك على هذا اليوم بل يصح أن تفسر أيضا بساعة الهلاك في الدنيا بحرب أو غيره بدليل ما تقدم لك وبمقتضى قوله تعالى (الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) التي تفيد إطلاق الساعة في اصطلاح القرآن على ساعة الحرب أيضا.

وكذلك الموعد الذي هو خير عن الساعة في قوله (بل الساعة موعدهم) فإن ليس مختصا أيضا في لغة القرآن بموعد يوم القيامة بل يعبر به عن موعد الهلاك في الدنيا أيضا بدليل قوله تعالى (فأتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) وقوله أيضا (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) وقوله (ولما رأى المؤمنون الأحزاب) (أي أحزاب المشركين في الحرب) (وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) وقوله (وإما نرينك بعض الذي نعدهم) وقوله (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فما جاءهم أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) وقوله (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) وقوله (ثم صدقنا الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المشركين) فهذه الآيات كلها تفيد أن ما كان قد وعدهم الله به قد حصل لهم في الدنيا إما بإهلاكهم أو بإنزال الرجس والغضب عليهم أو بجعل عاليهم سافلهم وإمطارهم حجارة منن سجيل أو بأخذهم بالرجفة إلى غير ذلك من أنواع العذاب والهلاك في الدنيا مما سماه موعدا تارة وساعة أخرى.

وحينئذ فمن المرجح أن تكون الساعة في قوله بل الساعة موعدهم هي ساعة هلاك المشركين يوم بدر (وآل) فيها للعهد الذكرى والمعهود هي الساعة التي ذكرها الله تعالى في أول السورة وأخبر عنها بأنها اقتربت وبينها وفصلها بما هو في مضمون الآيات التي بعدها الدالة كلها على ما بيناه لك من أنها هي ساعة هلاك المشركين على أيدي المؤمنين في وقعة بدر وغيرها مما حصل لهم من عذاب الدنيا.

(المرجح العاشر)

قوله تعالى في آخر سورة النجم (هذا نذير من النذر أولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة) فإن اسم الإشارة راجع إلى ما ذكره تعالى قبل هذه الآية من حوادث إهلاك عاد وثمود وقوم نوح في الدنيا التي ذكر مثلها في سورة القمر أيضا، أي أن هذه الحوادث الماضية هي نذير من النذر الأولى إلى قريش وإن ذكرها لهم ليعتبروا بها هو إخطار لهم أي وليس بعد الإخطار إلى الجلب بالقوة وليس بعد الإنذار إلى العذاب بالفعل، وإذن فقد أزفت آزفتهم وحضرت ساعة عذابهم وهلاكهم في الدنيا كما عذبت وأهلكت هذه الأقوام من قبلهم فيها، اقتربت الساعة هي مثل أزفت الآزفة في المعنى والغرض وحيث أن الآزفة التي ليس لها من دون الله كاشفة هي عذاب في الدنيا كما سبق من أنها إنذار لقريش بعذاب في الدنيا كعذاب قوم نوح فيها، فكذلك الساعة التي اقتربت لها هي في الدنيا أيضا لأنهما متشابهان في المعنى متماثلان في السياق متلاصقان في الذكر، حيث أن أزفت الآزفة هي في آخر سورة النجم الملاصقة لأول سورة القمر فتشابه معناهما وتماثل سياقهما وقرب اتصالهما يدل على اتفاقهما في القصد واتحادهما في لمعنى والغرض، وإنما ذكرا في سوريتين بحسب أسباب النزول وبواعث أجوال الاتعاظ والاعتبار والإنذار.

(المرجح الحادي عشر)

قوله تعالى (اقتربت للناس حسابهم وهي في غلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم) المراد من الناس في هذه الآية هم المشركون خاصة كما روي ذلك عن بن عباس، وكما هو اصطلاح القرآن من التعبير بالناس عن المشركين، وبأهل الكتاب عن أرباب الأديان السابقين، وبالمؤمنين عن أصحاب هذا الدين وكما هو صريح نفس هذه الآية التي إنما ذكرت أحوال المشركين وصفاتهم وأعمالهم خاصة فإن الذين اعرضوا عن الذكر وغفلوا عنه واستمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم عنه والذين أسروا النجوى وقالوا ما هذا إلا بشر مثلكن، هم المشركون، فالمراد حينئذ من الحساب الذي اقترب هو حسابهم فقط لا دخل لعيرهم فيه لا الحساب العام في يوم القيامة الذي يعم المؤمنين أيضا، وحسابهم هذا هو مجازاتهم وإهلاكهم في الدنيا لا الحساب بمعنى المحاسبة والسؤال لأن هذا ليس خاصا أيضا بالمشركين بل يعم جميع العالمين بمقتضى قوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) فالآية تفيد أنه قرب جدا وقت محاسبة ومجازاة وإهلاك هؤلاء المشركين في حال أنهم في غفلتهم معرضون عن الذكر المحدث عليهم والمنزل إليهم وفي حالة أنهم لا يستمعونه إلا وهم يلعبون لاهية قلوبهم عنه مسرين النجوى ومخفين المكائد لرسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين ما هو إلا بشر مثلكم فكيف تصدقونه في دعوى النبوة، أي أن عذابهم وهلاكهم سيكون في الدنيا وهم متلبسون بهذه الأحوال حتى ينتهوا بسبب هذا العذاب من غفلتهم،

ومما هو صريح فيما نقول من أن المراد من الحساب هو الحساب المشركين ومجازاتهم وإهلاكهم في الدنيا، قوله تعالى عقب هذه الآيات الذي هو كتفسير لها (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) فإن الهمزة للاستفهام الإنكاري الذي قصد به التهديد أي أنهم لا يؤمنون كما لم ترمن القرى التي أهلكناها قبلهم أي فحينئذ لا بد من إهلاكهم مثلهم في الدنيا لعدم إيمانهم كما كنا إهلاكنا تلك القرى لعدم إيمانهم أيضا، واقتربت الساعة هو مثل اقترب للناس حسابهم فكما أن المراد من الحساب هو المجازاة والهلاك في الدنيا فكذلك الساعة بمقتضى هذه القرائن ففي كل موضع ينظر فيه لقرائنه وأحواله فإن اقتضت أن يكون المراد من الساعة والحساب في الدنيا تحمل عليه وإلا فتحمل على ساعة وحساب الآخرة. ومما هو صريح فيما نقول قوله تعالى (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) إذ أن سرعة الحساب تقتضي أن يكون هذا الحساب في الدنيا.

(المرجح الثاني عشر)

قوله تعالى في أول سورة الحج (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع ل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) فإن هذه الآية تفيد أنه في اليوم الذي ترى الناس فيه زلزلة الساعة وعذابها فإنها تذهل فيه المرضعة منهم عما أرضعت وتضع فيه الحامل منهم حملها من شدة هول هذا العذاب وهي صريحة في أن المراد من هذه الساعة هي ساعة عذاب شديد في الدنيا إذ أنه لا يوجد في ساعة ووقت عذاب الآخرة في جهنم مرضعة حتى تذهل عما أرضعت ولا حامل حتى تضع حملها لأنه لا حمل ولا إرضاع يكون في الدنيا وحينئذ فالساعة التي يوجد فيها العذاب الذي يذهل المرضعة عن رضيعها، ويسقط الحامل حملها هي ساعة عذاب شديد في الدنيا، وليس هناك مانع عقلي ولا لغوي ولا شرعي من أرادة ساعة العذاب في الدنيا كما هو مشاهد للعيان ومصرح بحصوله في الدنيا بصريح آيات القرآن كالخسف والمسخ والغرق والريح والصرصر والعذاب الهون (أي الإهانة والاستبعاد) وغيرها وكأنواع الحروب الهائلة وأصناف المصائب الشديدة الحاصلة على الأمم في الدنيا حتى على هذه الأمة التي بعث فيها النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى قوله تعالى (فإن اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) وصاعقة عاد وثمود هي عذاب في الدنيا بمقتضى قوله تعالى (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نجسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون أما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون) وبمقتضى قوله تعالى (إن ربك سريع العقاب) إذ أن سرعة العقاب تقتضى أني كون هذا العقاب في الدنيا فهذه الآيات صريحة في أنه يوجد عذاب في الدنيا حتى على هذه الأمة غير عذاب الآخرة وحينئذ ليس هناك داع لتخصيص هذه الساعة المذكورة في هذه الآية بساعة الآخرة في يوم القيامة ولا لزوم لتعسف المفسرين بجعل هذه الآية مبينة على الغرض والتقدير أي لو فرض أن هناك في الآخرة حمل وإرضاع فإن المرضعة تذهل عما أرضعت والحامل تضع حملها إذ لا يناسب ولا يليق أن تجعل آيات الله وبياناته إخباراته لا حقيقة لها ولا وجود لمعانيها ومضامينها بل هي فرض وتقدير ما دامت الحقيقة موجودة وحاصلة بالفعل وعليه فإن تفسير الساعة هنا بساعة العذاب في الدنيا أقرب جدا من تفسيرها بساعة عذاب الآخرة وهذا لا يمنع من حصول عذاب في الآخرة أيضا كما مر لك في صريح قوله تعالى (لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى) إذ لا تنافي بينهما ولا مانع من حصول كليهما، فالآيات التي هي صريحة في عذاب الآخرة وهي كثيرة تحمل عليها كما أن الآيات التي هي صريحة في عذاب الدنيا تحمل عليها أيضا كما هو مشاهد وحاصل في كل زمان ومع كل أمة.

أما ما هو المراد من زلزلة وعذاب هذه الساعة وما هو وقت حصولها في الدنيا فهو أمر لم يبينه الله في كتابه العزيز ولكن يوجد في بعض الأحاديث ما يشير إلى لك فقد ورد أنه حينما نزلت هذه الآية والنبي صلى الله عليه وسلم في سفره إلى غزوة بني المصطلق ذكر عليه الصلاة والسالم أمر يأجوج ومأجوج وما يحصل للمسلمين من أضرارهم وللعرب من شرورهم، وقد بينت وأشارت كثير من الأحاديث الأخرى أن المراد في يأجوج ومأجوج هم التتر حينما اكتسحوا بغداد دار السلام، ومقر عظمة الإسلام، ومن يطالع تاريخ ووقائع هذه الفاجعة العظيمة والمصيبة الجسيمة التي نزلت بالمسلمين، وبالعرب أجمعين،على يد جانكيز خان وهولاكو وغيرهم من ملكوك التتر الذين كانوا هم السبب في ذهاب مجد العرب والمسلمين وسقوط دولتهم وضياع علومهم وكتبهم التي رموا بها في نهر الدجلة أو الفرات ليتخذوها جسرا يمرون عليه إلى الجانب الآخر ويطالع أيضا ما حصل في تلك المواقع من الفظائع والفجائع يعلم مقدار هول ذلك اليوم وزلزلة تلك الساعة مقدار عدد الحوامل اللاتي وضعن

(المرجح الثالث عشر)

إن القرآن الكريم كما أنه أطلق لفظ الحشر على إخراج وجمع العالمين كلهم في يوم القيامة كذلك أطلقه على إخراج وجمع الناس للقتال في الدنيا في قوله تعالى في سورة الحشر (هو الذي أخرج الذين كفورا من ديارهم لأول الحشر ما ظننتهم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله)

فهذه الآية صريحة في تسمية إخراج الكافرين من ديارهم للقتال وجمعهم له حشرا فكما أن الحشر أريد به الحشر في الدنيا في اصطلاح القرآن فكذلك الساعة أيضا حسب القرائن والمقتضيات.

(المرجح الرابع عشر)

قوله تعالى (وأنه لعلم للساعة) الضمير راجع لعيسى عليه السلام أي أن ظهوره علامة للساعة، فيبعد جدا أن يراد بها يوم القيامة للزوم قرب العلامة من المعلم عليه، قربا يصحح كونه علامة عليه، وذلك غير متحقق هنا فقد مضى على ظهوره عليه السلام ما مضى وربما يمضي أكثر منه أيضا ولا يقع ما هو علامة عليه، ولكن إذا أردنا من الساعة ساعة هلاك ودمار وسقوط وانخفاض اليهود بسبب كفرهم به، وإيذائهم له، وساعة ارتفاع ورخي النصارى بسبب إيمانهم وتصديقهم له أي ساعة مجازاة كل منهم على عمله مجازاة دنيوية يكون ذلك أقرب جدا وتكون هذه الآية مطابقة للمعنى والمقصود لقوله صلى الله عليه وسلم (أنا والساعة كهاتين) من أن ظهور كل رسول هو علامة على قرب ساعة هلاك وسقوط من كفر به، وارتفاع ورقي من آمن به في الدنيا ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في حق القرآن الحكيم (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ما يضل به إلا الفاسقين) التي تفيد أن إرسال الرسل وإنزال الكتب هو السبب في سعادة الأمم وشقائها وسقوطها وارتفاعها. ومما هو صريح في ذلك قول المسيح عليه السلام (لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية. وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم) كما هو في إنجيل يوحنا إصحاح 15 آية 22) فإن قبل ظهور الرسول في أي أمة من الأمم لا يكون عليها عذاب ولا تستحق فيه العقاب كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) إذ أنه قبل بعثة الرسول في تلك الأمة لم يتحقق معنى الكفر في الكافر منها، ولا معنى الإيمان في المؤمن فيها، بخلافه بعد بعث الرسول وإرساله فكل أمة كفرت برسولها، وكذبته وآذته فقد قربت ساعة هلاكها ودنا وقت دمارها، كما هو صريح جميع الآيات المتعلقة بحوادث وأخبار الأنبياء السابقين كنوح ولوط وإبراهيم وشعيب وصالح وغيرهم فجميع تلك الآيات المتعلقة بهؤلاء تفيد أنه حصل لتلك الأمم عذاب في الدنيا لسبب كفرهم بأنبيائهم فبعضهم كان عذابه بالخسف وبعضهم بالغرق، وبعضهم بالريح الصرصر إلى غير ذلك مما هو مذكور في القرآن من أنواع العذاب في الدنيا.

(المرجح الخامس عشر)

قوله صلى الله عليه وسلم (بعثت أنا والساعة كهاتين) وأشار إلى أصبعيه أي متقاربين متلاصقين كهاتين الأصبعين وهذا منطبق تمام الانطباق على هذه الآية التي تصرح بأنها اقتربت الساعة أي قربت جدا. فهذا الحديث وهذه الآية متحققان ومنطبقان تماما على المعنى الذي قلناه بعيدان عن المعنى الآخر، لأن قيام الساعة الكبرى لم يقع لحد الآن، وربما لا يقع إلا بعد دهور أخرى، وحينئذ (فأين الاقتراب جدا وأين التلاصق؟)

(المرجح السادس عشر)

قوله صلى الله عليه وسلم (أذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة) وفي بعض الأحاديث ما يفيد أن كثرة شرب الخمور والزنا وتفشي الموبقات هو أيضا من علامات الساعة، فإذا أردنا من الساعة ساعة هلاك واضمحلال وانقراض الأمة التي وسدت الأمور فيها إلى غير أهلها وكثرت فيها الموبقات والمعاصي والمظالم والفاسد يكون ذلك قريبا جدا، وموافقا للمشاهد المنظور في كل أمة وسدت الأمور فيها إلى غير أهلها من أنها تتلاشى وتنقرض بسبب ذلك سنة الله في خلقه، لأنه يوجد ارتباط قوي وترتب حقيقي بين اختلال أحوال الأمة وعدم حسن القيام بإدارتها السياسية والاقتصادية والصناعية والزراعية والتجارية والعلمية وغيرها الناشئة عن توسيد هذه الأمور إلى غير أهلها، وبين انقراضها واضمحلالها وتلاشيها، بل موتها وفنائها ومجيء ساعتها، لأن كل نوع من هذه الأنواع وغيرها، بل كل أمر من الأمور إذا قام به من لا يحسبنه أولا يقدر على القيام به فإنه لا تأتي منه الفائدة المطلوبة، ولا تتحصل منه المنفعة المقصودة، فتختل أحوال هذه الأمة باختلال مرافقها فتقرب ساعة اضمحلالها وهلاكها.

فهذه مترتبة على تلك ترتيب المسبب على السبب والمعلول على العلة وناشئة عنها نشوء الأثر عن المؤثر والنتيجة عن المقدمات فيكون معنى هذا الحديث ظاهرا واضحا وموافقا أيضا تمام الموافقة لقوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أي إذا أردنا إهلاكها نظرا لفسادها واختلال أحوالها أمرنا مترفيها أمرا تكوينيا أي كونا الفسق بهؤلاء المترفين وأوجدناه بأيديهم ورغبتهم، وجعلناه بواسطتهم ونفوذهم، أو جعلنا مترفيها أمراء عليها أي قائمين بأمورها وإدارة شؤونها حيث تمكنوا من ذلك وتشبثوا به بواسطة هذا الاختلال والفساد (ففسقوا فيها) أي ظلموا وتعدوا على أهلها وأكلوا حقوقهم وصرفوها في مصالحهم الشخصية سدا لعوز ترفهم، وقضاء مشتهياتهم ووسدوا بقية أمور هذه القرية إلى أمثالهم ممن يفسدوا إدارتها، وأسندوا بقية الوظائف إلى غير مستحقيها دون نظر للمصالح العمومية، ولا اكتراث لما يترتب على ذلك من المضار الوطنية، والمفاسد والمهلكات القومية، فليس المراد من الفسق هنا الفسق الشخصي الذي لا يتعدى ضرره فاعله، بل المراد به الفسق الاجتماعي كالظلم والتعدي، والغش والخداع، والتفرقة والفساد، وإسناد الوظائف إلى من لا يستحقها. وإعطاء الأعمال إلى من لا يحسن القيام بها لأن هذا هو الذي يضر بالهيئة الاجتماعية ويفتك بمصالح القرية العمومية (فحق عليها القول) أي استحق أهلها العذاب لتسببهم فيه، وتقصيرهم في أنفسهم وإهمال أمورهم وتركها في أيدي مترفيهم (فدمرناها تدميرا) إما بإهلاكهم وإفنائهم أو بإضعافهم وملاشتهم واضمحلالهم أو بافتقارهم وإذلالهم وذلك جزاء اختلافهم وانقسامهم على أنفسهم. فأنت ترى أنه بهذا البيان قد تطابق معنى الحديث بمعنى آية القرآن وأصبح كل منها يفسر معنى الآخر.

فهذه الآية حينئذ قد بينت معنى الساعة في الحديث من أنها هي ساعة دمار الأمة وهلاك القرية إذا ولي الأمر إلى غير أهله فيما، بإمارة مترفيها، حتى فسقوا فيها. بخلاف ما إذا أردنا من الساعة في الحديث الساعة الكبرى وهو يوم القيامة فإنه يكون بعيدا من وجوه:

(أولا) كم وكم ولي الأمر إلى غير أهله في هذه الأمم الموجودة وغيرها ممن قبلها ولم تقم الساعة الكبرى لحد الآن.

(ثانيا) إذا ولي الأمر لغير أهله في أمرة أو أكثر أو في قطر أو مملكة فإنه لا يكون كذلك في الأمم والممالك والأقطار الأخرى، سنة الله في خلقه من سقوط أخلاق أمة وارتفاع أخلاق أمة أخرى، وحينئذ فما وجه قيم القيامة ومجيء الساعة الكبرى وخراب العالم بأجمعه بسبب تولي أمور أمة واحدة أو أكثر إلى غير أهلها مع وجود أمم كثيرة وليت فيها أمورها إلا أهلها.

(ثالثا) أنه لا يوجد أي علاقة ولا أدنى ارتباط بين تولي حتى كل أمور جميع الأمم إلى غير أهلها وبين خراب الكائنات وفساد الأرض والكواكب والسماوات، فإن فساد أحوال أمم وذنوب أفرادها إنما يؤثر فيها فقط لعلاقتها بهم لا في الأجرام العلوية أو السفلية التي لا سبيل لتأثير مثل أعمال هؤلاء فيها، وحينئذ فالأولى أن تفسير الساعة في الحديث بما قلناه تصديقا له من جهة، وتطبيقا له على الآية الكريمة من جهة أخرى، وعليه فيكيف هذا الحديث وهذه الآية مرجحا لتفسير الساعة في اقتربت الساعة بما قلناه.

(المرجح السابع عشر)

أن ماهية المعجزة وتعريفها ينطبقان تمام الانطباق على انشقاق القمر بالمعنى الذي قلناه، ولا ينطبقان على انشقاق قمر السماء لأن العلماء قد اتفقوا على ان ماهية وتعريف المعجزة (هي أمر خارق للعادة) ولم يقد أ؛د منهم أنها أمر خارق للطبيعة، والعادة مأخوذة من عاد إلى الشيء إذا رجع إليه وكرره حتى صار عادة له فهي أمر وجودي لا عدمي لأن العدميات لا يقال عنها في اللغة أنها عوائد وحينئذ فلا يصح أن يقال: أن عدم انشقاق قمر السماء كان عدة حتى يعد انشقاق خارقا لها. ولكن عبادة الأوثان والذبح للأصنام ووأد البنات وكذلك سائر أعمال المشركين الذميمة كانت عوائد جارية بينهم فيصح أن يقال أن نور الإسلام وضياء القرآن قد ظهر وطلع فخرق هذه العوائد كلها وإبطاها وغيرها وبدلها بعبادة الله وحدة جل وعلى بالأعمال والعادات الحسنة التي شرعها وتغلب بها على سائر أعمال المشركين وعوائدهم الذميمة وحينئذ فما هي المعجزة وتعريفها ينطبقان على انشقاق القمر بهذا المعنى دون ذاك فإن محمدا عليه الصلاة والسلام بخوارق أعماله المعقولة.وبآثاره الظاهرة الباهرة المعلومة. وبأخلاقه ومزاياه وفضائله المأثورة. هو لا شك معجزة من معجزات الدهر المشهورة. والإسلام ببدايته الغريبة ونشأته العجيبة. وبانتشاره السريع. وتطوره المريع وبتعاليمه المفيدة وآثاره المجيدة هو لا ريب معجزة من معجزات الدهر العتيدة.

والقرآن بحكم بيانه، وقوة حجته وبرهانه، وبحسن أسلوبه وبلاغة كلامه، وباعتدال قوانينه ومتانة أحكامه، وبصلاحية تعاليمه لجميع الأزمنة والأعصار، وموافقة شرائعه لكل الأمم في سائر الأمكنة والأمصار، وبصدق أخباره عن المغيبات، وصحة إنبائه بما مضى وما هو آت، وبما أرشد إليه من أنزه العقائد، وأنفع التكاليف والفرائض، وأجل الأعمال، وأجمل الخصال، وأعلى الأخلاق وأسمى الآداب وبهدايته للأمم، وتأثيره في نفوس العالم، وإخراجهم من ظلمة الجهالة والضلالة والشرك والكفران، إلى نور العلم والهداية والتوحيد والإيمان، هو لا خلاف في أنه بكل لك معجزة من معجزات الزمان، المستمرة المستقرة إلى انتهاء الدوران، فالمعجزة إنما تتحقق وتصدق على مثل هذه الأشياء لا على مثل انشقاق قمر السماء.

(المرجح الثامن عشر)

إن المعجزة هي دليل وبرهن على صدق دعوى الرسالة والدليل والبرهان لا بد وأن يكون له مناسبة وارتباط بالمدلول حتى يصح أن يكون دليلا عليه، فلو أدعى أحد أنه كاتب أو شاعر وقال أن دليلي على ذلك أن أطير فيا لهواء مثلا فلا يصدق في دعواه وإن طار فعلا إذ لا مناسبة ولا ارتباط بين الدليل والمدعى، ولكن إذا كتب لنا مقالة قيمة، أو أنشأن شعرا جيدا، فإننا نصدقه في هذه الدعوة فكذلك الحال هنا فإن دعوى الرسالة التي هي بعث من الله تعالى لهداية الخلق وإرشادهم وإخراجهم من ظلمة لجهل والظلال، والشرك والكفران، إلى نور العلم والهداية، والتوحيد والإيمان، مرتبطة تمام الارتباط بانشقاق القمر بالمعنى الذي ذكرناه، والاستدلال به هو استدلال بالأثر على المؤثر كاستدلال الشاعر على شاعريته بإنشاء القصيدة.

ولكن الاستدلال على الرسالة بانشقاق قمر السماء هو كالاستدلال بالطيران على دعوة الشعر مثلا، لا يثبت المدعي ولا يقوم حجة عليه.

(المرجح التاسع عشر)

إن انشقاق قمر السماء لم يذكره أرباب الأرصاد، مع أنها كانت موجودة قبل البعثة، ولم ينقله المؤرخون مع وضوحه، وجلالة شأنه وغرابته والطباع حريصة على نقل القريب ورواته. فإطباقهم على تركه وإغفاله، الذي لا يحصل عادة في أمثاله، يدل على استبعاد حصوله وعلى ترجيح تفسيره انشقاق القمر بما قلناه.

أما الأحاديث الواردة في ذلك فقد تقدم لك أنها لكثرة اختلافها وتناقضها وتضاربها لا تدل على ثبوت وتحقق هذا المعنى ولا تقوم حجة عليه. وإنما غاية ما تفيده تلك الروايات من حيث المجموع هو حصول انشقاق القمر بالمعنى المطلق الوارد في الآية التي عرفت معناها بأدلة ومرجحات، فحمل هذه الأحاديث على ما يقرب تصديقه خير من حملها على ما هو مستعد في العقل مما يستوجب الإنكار وعدم الثقة بالأحاديث والأخبار.

(أن جواز انشقاق قمر السماء عقلا وبالنسبة لقدرة الله تعالى لا يصح أن يستدل على حصول ذلك بالفعل)

وأما كون انشقاق قمر السماء أمرا جائزا في العقل وممكنا بالنسبة لقدرة الله تعالى، فهذا أمر لا يصح ولا يجوز أن يشك فيه أحد لأن الذي قدر على خلقه، لا يعجز عن شقة، ولكن الجواز والإمكان شيء، والحصول بالفعل شيء آخر يحتاج في إثباته إلى أدلة توجب التصديق به، خصوصا إذا كان مستبعدا في العقل، فليس كل شيء ورد فيه بعض أخبار ولو ضعيفة أو متناقضة يجب علينا أن نصدق بحصوله مهما كان بعيدا عن العقل بحجة أنه جائز على قدرة الله تعالى كما يستدل بذلك كثير من الناس من أنه يجب التصديق بكل ما يقال بالنظر لكون قدرة الله صالحة له نعم هي صالحة لكل شيء ولكن لا يجب علينا أن نصدق بحصول أي شيء بالفعل ما لم يقم دليل قاطع على حصوله. ولا يظن ظان أن هذا الكلام يشعر بإنكار معجزة انشقاق القمر، بل إنه يبينها بأحلى معانيها، وأجل مراميها، وبما ينطبق على ماهية المعجزة ومعناها الحقيقي، وبما هو حقيق بالإذعان والإقرار، جدير بعدم الاستنكار والاستهتار، عند كافة أهل الأنظار والأبصار، وبما هو أقرب إلى معنى الآيات والأحاديث والأخبار، فيكون هذا الكلام تثبيتا وتأييدا لمعجزة انشقاق القمر بمعناه الحقيقي المقصود، ولا يظن ظان أيضا أن كلامي في موضوع الساعة والحشر والموعد والحساب يشعر أيضا بإنكار هذه الأشياء أو إنكار يوم القيامة واليوم الآخر، معاذ الله أن أكون من الجاهلين الذين ينكرون الإدانة بوم الدين يوم الجزاء العام، ويوم العدل الإلهي التام، التي تصرح به آيات محكم القرآن ذلك اليوم الذي يقتص فيه للمظلوم من الظالم، والمقتول من القاتل، وينال الضعيف كسير الجناح حقه من الجائر العاتي أمام الحاكم العادل، وإلا فإذا لم يوجد هذا اليوم لكان الله جائرا محابيا، أو لاعبا هاذيا تعالى الله عما يظن الجاهلون الذين هم لهذا اليوم منكرون والذين هم لحساب الآخرة وعقابها وثوابها جاحدون، بل غاية ما يفيده هذا الكلام في تلك المواضيع هو أن الساعة والحشر والموعد والحساب قد أطلقت في القرآن على معان لها حصلت في الدنيا كما أنها أطلقت على معانيها التي ستحصل يوم القيامة، وهذا لا مانع منه ولا محظور فيه، فكما أن للإنسان حياة في الدنيا يوجد فيها أنواع السرور والنعم، والهموم والنقم كذلك له حياة في الآخرة أرقى جوا من هذه الحياة يوجد فيها أنواع الإحسان والأنعام، والعقاب والانتقام وليس حياة الجسم الدنيوية بالنسبة للحياة الأخروية إلا كحياة الجنين في بطن أمه، بالنسبة لحياته بعد ولادته وتعقله وفهمه، فالروح متى خرجت من الهيكل الجسماني المادي الفاني الدنيوي، ودخلت في الهيكل النوراني الباقي الأخروي، فإنها تصير أكثر عليما، وأوفر فهما، وأشد كشفا، وأسطح نورا، وأدق شعورا، فالخلاص من البدن هو ولادة جديدة للروح تدخل بها في حياة أعلى وعالم أرقى، وحياة الروح بالجسم في الدنيا إنما هي المرحلة الأولى التي يبتدئ الإنسان بها في الحياة، وحياتها في الآخرة هي الحياة الأبدية الباقية، فالروح بعد الموت باقية خالدة لا تفنى باتفاق الحكماء والفلاسفة وجميع أرباب الأديان حتى كان أن يكون الاعتقاد ببقائها بعد الموت أمرا عاما عند العقلاء المفكرين لا يكاد يشذ عنهم إلا من لم يذق طعم العلم الصحيح ولم يكتنه الحقائق الثابتة.

ولعل ما قلته في انشقاق القمر بأدلته القرآنية وبما تصرح به الأحاديث النبوية وبحججه وبيناته العقلية يكون كافيا لتوضيح هذا الموضوع كافلا لحل الإشكال فيه رافعا للخلاف لبين الفاضلين وسعادة الباشا وغيرهم.

وعسى أن لا يحصل بعد هذا البيان مجادلة أو مشاحنة أو عناد وأن لا أنسب فيه إلى فر أو زندقة أو إلحاد من أهل الجهالة والغباوة والفساد. كما هو جار في مثل ذلك ومعتاد. ولكني بعون الله تعالى أجهر بالحق لا أخاف فيه لومة لائم. ولا اعتمد إلى على الثبات المعقول وإن عابني فيه غبي جاهل أو أسأني في مفسد ظالم وليس لي على غير الله اتكال واعقاد ومنه لا من غيره استمد التوفيق والسداد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهله وصحبه وسلم.

يوجد تحت الطبع لصاحبه هذه الرسالة الأستاذ الشيخ عبد الله القيشاوي أربعة رسائل أخرى كبيرة غير هذه:

(الأولى) في الاستدلال على عدم قتل المسيح عليه السلام وعدم صلبه صلبا حقيقيا بنفس آيات الأناجيل الأربعة وتطبيقها على قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه وكلن شبه لهم)

(الثانية) في بيان ما هو المراد في عصا موسى عليه السلام ومن انقلابها حية بالاستدلال على ذلك بنحو خمسة وثلاثين دليلا في صريح آيات القرآن الحكيم، ونص آيات التوراة والإنجيل.

(الثالثة) في بيان ما هو المراد من مائدة عيسى عليه السالم، والاستدلال على ذلك بصريح آيات الإنجيل والقرآن مع ذكر الردود الواردة في الجهات على هذا البيان، وذكر الردود من الأستاذ المذكور على تلك الردود التي قد نشرتها كلها جريدة صوت الحق في نحو خمسة عشر عددا بصفحة كاملة.

(الرابعة) في بينان ما هو المراد من إحياء عيسى عليه السلام للموتى بالاستدلال على ذلك بكثير من آيات الإنجيل والقرآن، مع تحليل جميع الوقائع الواردة في الأناجيل من هذا القبيل وتفصيل معنى كل آية منها وتطبيقها على هذا.